التاريخ والفينومينولوجيا في علم الأديان

رفائيلي بيتازوني*
ترجمة: محمد أسامة بن عطاء الله**

doi:10.17879/mjiphs-2024-5790

ملخص

شهدت بدايات القرن التاسع عشر العديد من النظريات التي تحاول الإجابة عن سؤَال ماهيّة الدين وأصله. غير أنّ النتائج الإقصائية التي خرجت بها هذه النظريات حول الظاهرة الدينية قادت نحو ظهور أصوات تنادي بضرورة تجاوزها واصفةً تصوّراتها بـ"الاختزالية"، وداعية في الوقت نفسه إلى تبنّي قراءة مستجدّة لهاته الظاهرة، بحيث تراعي جانبها القدسي، وتحافظ على بعدها ذو الشرطية الترانسندنتالية. ويعتبر رفائيلي بيتازوني من بين مؤرّخي الأديان الذين حملوا على عاتقهم لواء التنظير والتقعيد لفرع معرفيٍّ مستجدٍّ ومستقلّ بذاته من حيث المنهج والتصوّر، إذ نادى بضرورة التأسيس لعلم يُعنَى بدراسة الدين دون استعارة تصوّرات النظريات الاختزالية. ولتحقيق أقصى قدر من الموضوعية، تبنّى بيتازوني المقاربة الفينومينولوجية التي تتمأسس على تعليق الأحكام المسبقة، غير أنّه آمن بإمكانية تحقيق التكامل المعرفي بين الفينومينولوجيا وتاريخ الأديان، ولذلك اعتنى بالقراءة التاريخية للدين لاعتقاده بأهمّيتها المنهجية في تتبّع أصل الدين ومراحل تطوّره. وتأتي ترجمة هذا المقال حتى تزيح النقاب عن موقفه من التوتر الجدلي القائم بين المقاربتين التاريخية والفينومينولوجية، وعن إمكانية التوفيق بينهما لتحقيق النهضة بتاريخ الأديان وتأسيسه كحقل مستقل بين العلوم الإنسانية والاجتماعية.

كلمات مفتاحية: علم الأديان، الفينومينولوجيا، التاريخ، المنهج، بيتازوني

* مؤسّس المدرسة الإيطالية في تاريخ الأديان، وأحد رواد علم تاريخ الأديان في القرن العشرين.
** باحث في مقارنة الأديان، حاصل على الدكتوراه من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر.
benatallah.medouss@gmail.com
*** نُشرت المقالة باللغة الإنجليزية في كتاب مقالات في تاريخ الأديان، يُنظر:
Raffaele Pettazzoni, *Essays on the History of Religions*, H. J. Rose (trans.) (Leiden: Brill, 1954), p. 215-19.

History and phenomenology in the science of religion

Raffaele Pettazzoni*
Translated by Mohamed Oussama Benatallah**

doi:10.17879/mjiphs-2024-5790

Abstract

At the beginning of the nineteenth century, numerous theories emerged to address the nature and origin of religion. However, the exclusionary conclusions of these theories led to criticisms labeling them as "reductionist" and prompted calls for a new approach that acknowledges the sacred and transcendent dimensions of religion. Raffaele Pettazzoni, a notable historian of religions, advocated for the development of a new and independent field of study that examines religion without relying on reductionist concepts. To enhance objectivity, Pettazzoni adopted the phenomenological approach, emphasizing the suspension of biases. Despite this, he recognized the potential for epistemological integration between phenomenology and the history of religions, stressing the importance of historical analysis in understanding the origins and development of religion. This article aims to explore Pettazzoni's stance on the interplay between historical and phenomenological approaches and the potential for their reconciliation, ultimately contributing to the establishment of the history of religions as an independent discipline within the human and social sciences.

Keywords: Science of religions; Phenomenology; History; Method; Pettazzoni

* Founder of the Italian School of the History of Religions and one of the pioneers of the history of religions in the twentieth century. His two books translated into English are: Essays on the History of Religions (1954); The All-knowing God. Researches into early religion and culture (1956).

** Researcher in Comparative Religion, PhD from the Emir Abdelkader University of Islamic Sciences, Algeria. benatallah.medouss@gmail.com

مقدمة المترجم

شهدت بدايات القرن التاسع عشر اهتماما واسعا بمسألة البحث في أصل الدين، حتّى وصف مؤرّخ الأَديان الروماني ميرتشيا إلِيادي هوَسَ الباحثين خلال تلك الفترة من التاريخ الثقافي الغربي بهذا الشأن بـ"سِرساب الأصول" The Obsession with Origin وذلك بعد التطوّر الذي عرفته العلوم الإنسانية والاجتماعية على مستوى الأدوات المنهجية المطبّقة على الظواهر الدينية بعد تملُّصها من المقاربة اللاهوتية المتوارثة من التراث الكنسي القروسطي، وقد تعدّدت النظريات التي تعدُّ بمثابة إجابات حول سؤال ماهيّة الدين وأصله بتعدّد واختلاف زوايا النظر وطبيعة المناهج المعتمدة في التقصّي والمقاربة، على غرار الطوطمية والأرواحية والفيتيشية والوضعية وغيرها.

غير أنّ النتائج الإقصائية والاحتقارية التي خرجت بها هذه النظريات حول الظاهرة الدينية قادت نحو ظهور أصوات تنادي بضرورة تجاوزها ونقدها، واصفةً تصوّراتها بـ"الاختزالية " Reductionalism، وداعيةً في الوقت نفسه إلى تبنّي قراءة ثورية ومستجدّة لهاته الظاهرة التي رافقت مسيرة الحياة البشرية، بحيث تراعي جانبها القدسي، وتحافظ على بعدها ذو الشرطية الترانسندنتالية الذي أهملته المقاربات السابقة وألغته عن الدين، وهو ما أدّى إلى سلخ القداسة عن أبعاد الوجود الإنساني.

ويعتبر رفائيلي بيتازوني من بين مؤرّخي الأديان الذين حملوا على عاتقهم لواء التنظير والتقعيد لفرع معرفيٍّ مستجدٍّ ومستقلّ بذاته من حيث المنهج والتصوّر، إذ نادى بضرورة التأسيس لعلم يُعنَى بدراسة الدين دون استعارة تصوّرات مخالفة لشخصية وهوّية هذا التخصص الفتيِّ في الفكرِ الغربي خلال تلك الفترة، وشدّد على الحاجة إلى تبنّي مقاربة موضوعية مناهضة للاختزالية Anti-Reductionism يمكنها بلوغ جوهر الدين، كما يمكنها المحافظة على بعده الترانسندنتالي الذي يعتبر تأسيسيًّا في بُنيته، ودراسته في ذاته دونما استدعاء عناصر خارجية وثانوية عنه لا تنتمي لجوهره، ثمّ الارتقاء بها لتحتلّ مكانة رئيسية يتمّ تفسير الدين من خلالها وهو ما يوقع في فخّ الاختزال الذي مارسته المقاربات السابقة.

ولتحقيق أقصى قدر من الموضوعية، تبنّى بيتازوني المقاربة الفينومينولوجية التي تتمأسس على تعليق الأحكام المسبقة، وتهدف إلى بلوغ القعر السحيق للدين من خلال تطبيق القصدية بغية إدراكه مثلما يتجلّى في ذاته، غير أنّه لم يَدعُ إلى تبنّي قطيعة إبستيمولوجية مع المقاربات الأخرى، انطلاقا من إيمانه بإمكانية تحقيق التكامل المعرفي بينها وبين تاريخ الأديان، ولذلك اعتنى بالقراءة التاريخية للدين لاعتقاده بأهمّيتها المنهجية في تتبّع أصل الدين ومراحل تطوّره، غير أنّه حذّر من محاولة البحث عن معنى ودلالة الظاهرة الدينية من خلال القراءة التاريخية، ذلك أنّها مهمّةٌ فينومينولوجية.

وتأتي ترجمة هذا المقال حتى تزيح النقاب عن موقفه من التوتر الجدلي القائم بين المقاربتين التاريخية والفينومينولوجية، وعن إمكانية التوفيق بينهما لتحقيق النهضة بتاريخ الأديان وتأسيسه كحقل مستقل بين العلوم الإنسانية والاجتماعية.

مقالة بيتازوني: التاريخ والفينومينولوجيا في علم الأديان*

تعرف دراسة الأديان في الوقت الراهن تناولاً متعدّد التصوّرات، إذ تتمأسس إحداها على تحليل الحقائق الدينية الذاتية من وجهة نظرٍ خارجيّة محضة، فالفيلولوجي يسعى جاهدا للحصول على تفسير أكثر دقّة للنّصوص التي تتعامل مع المسائل الدينية، أمّا عالم الآثار فيهدف إلى إعادة بناء هيكلِ معبد قديم أو شرح موضوعِ مشهد أسطوريٍّ، أو غير ذلك، بينما يحاول الإثنولوجي أن يقدّم تقريرًا مفصّلاً حول ممارسات طقسيّة معيّنةٍ لدى قبيلة غير متحضّرة، في حين يُثابر عالم الاجتماع من أجل تشكيل تصوّر حول تنظيم أو بنية مجتمع دينيٍّ وعن علاقاته بالعالم المدنّس، أمّا عالم النّفس فيعمل على تحليل التّجربة الدينية لهذا الشّخص أو ذاك، ومن ثمّ، يقوم جميع هؤلاء الباحثين بدراسة الحقائق الدينية من دون تجاوز حدود علومهم المخصوصة. وبناء على ذلك، فهم يدرسون المعطيات الدينية من منطلق روح هذه العلوم، كما لو أنّهم يتعاملون في المقام الأوّل مع حقائق فيلولوجية أو أثرية أو إثنولوجية وغيرها، متجاهلين بذلك طبيعتها المخصوصة والجوهرية، والمتمثّلة في الطبيعة الدينية.

وتحوز هذه الدراسات على قيمة جليلة بالنسبة لبحوثنا، كما أنّ لنتائجها أهمّية بالغة في بعض الأحيان، إذ غالبا ما نعزو توسيع نطاق معرفتنا وتعميقها إلى هاته التقصّيات. ومن ناحية أخرى، فمن الجليّ بأنّه لا يسعُها أن تلبّي جميع مطالب الرّوح العلميّة، ذلك أنّ الطبيعة المميِّزة، والخاصّية الفريدة للحقائق الدينية، تمنحها الحقَّ في تأسيس موضوعِ علمٍ مستقلٍّ، ويتمثّل هذا العلم تحديدًا في علم الأديان بالمعنى الدّقيق للكلمة، فالخاصّية الجوهريةً للحقائق الدّينية تعتبر سببا ضروريّا وكافيا لإيجاده. وعليه، فإنّه لا يمكن لهذا العلم أن يكون فيلولوجيًّا أو آركيولوجيًّا، أو غير ذلك، كما لا يسعُه أن يكون مجموعًا كلّيًا من الحقائق الدينية الخاصّة التي تخضع للدراسة الفيلولوجية والأثرية والإثنولوجية، وغير ذلك. فتعريفه في مقابل هذه العلوم ليس مسألة كمّية، وإنّما مسألة نوعية، نظرًا لارتباطها بالطبيعة المخصوصة للمعطيات التي تُشكّل موضوع إشكالياته.

إنّ علم الأديان استدلالي، ذلك أنّه لا يقصُر ذاته على التقصّي والشّرح التحليلي لمعطيات منفردة مثلما يتمّ دراستها بشكل منفصلٍ من طرف الحقول المتخصّصة الأخرى، فعلم الأديان يسعى إلى ربط المعطيات الدينية ببعضها البعض، من أجل إنشاء روابطٍ وتنظيمِ هاته المعطيات

* الأصل الفرنسي لهذه الصفحات كان جزءًا من مقال تمهيدي للعدد الأول من دورية *Numen* التي تصدرها الجمعية الدولية لتاريخ الأديان.

وفقا لتلك الرّوابط. وبالتالي، فإنّه إذا ما تعلّق الأمر بمسألة روابط شكليّة، فإنّه يقوم بتصنيف المعطيات الدينية تحت أنماط، وأمّا إذا ما تعلّق الأمر بمسألة روابط كرونولوجية فإنّه يقوم بتصنيفها ضمن سلاسل. وعليه، فإنّ علم الأديان يصبح في الحالة الأولى وصفيّا مجرّدا، أمّا في الحالة الثانية، حينما تكون الروابط محلّ الدراسة غير كرونولوجية محضة، أو حينما، بعبارة أخرى، يتوافق تتابع الأحداث خلال الزمن مع تطوّر داخلي، فإنّ علم الأديان يصبح من ثَمَّ علما تاريخيًّا، أيْ تاريخ الأديان.

ويهدف تاريخ الأديان في المقام الأوّل إلى فصل تاريخ مختلف الأديان، إذ يتمّ دراسة كل دين من طرف مؤرّخ الأديان بشكل مستقلّ، وضمن مجاله الخاصّ، ودراسة تطوّره ضمن هذا المجال، وفي إطار علاقاته بالقيم الثّقافية الأخرى التي تنتمي إلى نفس المجال، على غرار الشّعر، والفنّ، والفكر التأمّلي، والبنية الاجتماعية، وغير ذلك. وعليه، فإنّ تاريخ الأديان لا يسعى إلى دراسة المعطيات الدينية في علاقاتها التاريخية مع معطيات دينية أخرى فحسب، وإنّما يسعى كذلك إلى دراستها في علاقاتها مع المعطيات غير الدينية أيضا، سواء أكانت أدبيّة، أو فنّية، أو اجتماعية، أو كيفما كانت.

وعند هذه المرحلة تحديدًا يتبادر في ذهننا تساؤل بشكل عفويّ، أليس بهذا المنظور الذي يكشف عن نواحٍ أخرى من طبيعة مختلفة، ويتطلّع نحو مجالات أخرى غير الدين، يزيد من خطر تحويل تاريخ الأديان بعيدًا عن موضوعه الجوهريّ، وهو الاشتغال على الدين في ذاته؟ ألا يوجد هنالك شيء من العَوَز يخصُّ الصّرامة المنهجية في هاته الطريقة عند دراسة المعطيات الدينية في علاقتها مع معطيات أَخرى غير دينية؟ أليس من المحتمل أنّ الدراسة الأكثر تركيزًا على المعطيات الدينية في علاقتها مع معطيات من النوع نفسه، بعيدًا عن أيّ علاقة بينها وبين المجال غير الديني، سيجعل الفرصة أكثر يُسرًا لتحقيق إدراك متكاملٍ للدين؟

يمكن من خلال الممارسة العمليّة أن تُقدّم الإجابة الحاسمة حول هذه الفرضية النظريّة، ذلك أنّنا قد أخبرنا أنفسنا بأنّه لا يكفي مجرّد أن نعرف ما حدث بدقّة، وكيف ظهرت الحقائق في الوجود، فما نرغب في معرفته قبل كلّ شيء، هو معرفة معنى ما حدث، وعليه، فإنّه لا يمكننا أن نتوخّى طلب هذا الإدراك العميق من تاريخ الأديان، لأنّه ينبثق من علمٍ دينيٍّ آخر، وهو الفينومينولوجيا.

ليس لدى الفينومينولوجيا الدينية ما تقدّمه للتطوّر التاريخي للدين، مثلما يشير فان درليو*، فهي تُنصّب ذاتها في المقام الأول من أجل فصل البنى المختلفة لتعددية الظواهر الدينية. فالبنية

* “Von einer historischen Entwicklung der religion weist die Phanomenologie nichts”, see: Gerard van der Leeuw, *Phänomenologie der Religion* (Tübingen: J.C.B. Mohr, 1970 [1933]), p. 787.

وحدها من يمكنها مساعدتنا لإيجاد معنى الظاهرة الدينية، بغضّ النظر عن موقعها في الزمان والمكان، وعن علاقتها ببيئة ثقافية معينة، وبهذا تبلغ فينومينولوجيا الدين إلى الكونية التي تعد ضرورية لتجاوز تاريخ الأديان المكرّس لدراسة أديان مخصوصة، ولهذا السبب تحديدًا، لا تتردّد الفينومينولوجيا في النهوض كتخصص ذو جوهر فريد *Sui generis* مختلف جوهريا عن تاريخ الأديان، ففينومينولوجيا الدين ليست تاريخا للأديان كما سبق وأشار فان درلو.

هل يوجد هنالك المزيد ممّا يمكن طرحه؟ فلا شكّ أنّ الفينومينولوجيا تمثّل أهمّ ابتكار طرأ على دراساتنا خلال نصف القرن الماضي (بعيدا عن الإرهاصات السابقة لظهورها)، ومع ذلك، فإنّنا نشعر بشيء من الحيرة حول الموافقة على النّسق النهائي المتعلّق بتقسيم علم الأديان إلى علميْن مختلفين، أحدهما تاريخي، أمّا الآخر ففينومينولوجي. وهو ما ينزع بنا إلى التّساؤل عن الحاجة المطلقة من التضحية بوحدة علم الأديان بهذه القسمة الثنائية، وهو الذي تمأسس بناءً على وحدة موضوعه. وبالتّأكيد، فعلى النقيض من تاريخ الأديان المكرّس حصريا للأبحاث الفيلولوجية المتخصّصة (يتم توظيف مصطلح "الفيلولوجي" في هذا الموضوع بمعناه الواسع) التي تعتني بشكل أكثر اهتماما بالتّمظهرات "الثقافية" للدين، وبشكل أقلّ بالقيم الجوهرية للحياة الدينية والتجربة، تعكس الفينومينولوجيا ردّة فعلٍ شرعية جديرة بالثناء. ورغم ذلك فإنّه من المسموح طرح التّساؤل حول ما إذا كانت هذه الوجهة من النظر تعتبر أكثر قابلية، أم أنّها بدلا من ذلك، تعتبر تقليصا لتاريخ الأديان من خلال حصره بدراسة الأديان الفردية وتطوّرها.

من وجهة نظر عامّة، فإنّ فكرة التاريخ تصبح موضع النقاش عند هاته المرحلة، ذلك أنّ مفهوم التاريخ الذي كان يعتبر مجرّد معرفة بالماضي، وباعتباره ماضٍ غير متّصل بالحاضر، ومنفصل عن الحياة، صار مرفوضا من طرف المؤرّخين الذين يستلهمون تصوّراتهم من فكرٍ فلسفيٍّ مختلف عن الأساس الذي تنبَني عليه الفينومينولوجيا. وأمّا فيما يتعلّق بتاريخ الأديان بشكلٍ خاصٍّ، فهل من الجائز أن نقرّر بأنّه عاجز عن تقديم شيء حول معنى الظاهرة الدينية، وبأنّ التطوّر التاريخي عقيمٌ في جوهره، وعديم الجدوى فيما يتعلّق بالتفسير الفينومينولوجي؟ إنّ الظواهر الدينية لا تتوقّف عن كونها مجرّد حقائق تاريخية مشروطة، لأنّها تنتظم ضمن إطار هذه البنية أو تلك. وعليه، ألا يجازف الفهم الفينومينولوجي Verstehen في بعض الأحيان حينما ينسب معنىً معيّنٍ لظاهرة ما لا تتشابه مع هذا المعنى إلاّ من حيث كونها انعكاسا وهميّا تسبَّبَ فيه تقارب تطوّرات تختلف عن جوهرها، أو على النقيض من ذلك، بعدم إدراك المعنى المماثل لبعض الظواهر، والذي ينحجب تحت اختلاف ظاهريٍّ وخارجيٍّ محض؟

ويتمثّل السّبيل الوحيد لتجاوز هذه المزالق، في التطبيق المستمر للتاريخ، وتقرّ الفينومينولوجيا بذلك وتسلّم به، مُعلْنة بأنّها تعتمد على التاريخ، وبأنّ استنتاجاتها تظلّ قابلة للمراجعة بشكلٍ دائمٍ في ضوء تطوّر الدراسات التاريخيّة. وبناء على ذلك، ما هي طبيعة العلاقات المنهجية الحقيقيّة التي تربط

بين هذيْن العلمين اللّذينْ يتقاسمان نفس الهدف ويتعاونان بشكل متجاور؟ أم أنّنا في حقيقة الأمر بصدد مواجهة علمين مختلفين؟ أمْ أنّهما بالأحرى مجرّد أداتين مترابطتين لِنَفس العلم، وشكلين من أشكال علم الأديان الذي تتوافق وحدته التركيبية مع تلك المتعلّقة بموضوعه، ويُقصدُ به الدين تحديدا، في مكوّنيْهِ المتمايزين، أي التجربة الباطنيّة وتمظهراته الخارجية؟

وبعيدًا عن تحقيق النسق النّهائي لدراساتنا، فإنّ تقسيم علم الأديان إلى فينومينولوجيا وتاريخ سيكون مجرّد مرحلة في الطريق نحو تأسيس علم أديان مُوحّد يعتمد على قاعدته الجوهرية، وعلى بنيته المتعذّرة على التقسيم. ويجد سببا وجيها للتساؤل عمّا إذا كان هذا النظام الثنائي لا يرتبط بطريقة معيّنة من حيث قاعدته على ثنائية أخرى أكثر قدما، تستمد جذورها من البدايات الأولى لعلم الأديان، والتي لم تتوقّف عن ممارسة تأثيرها السّلبي في مجال دراساتنا، وأقصد بذلك ثنائية مصادره، إذ تعود إحداها إلى اللاّهوت، أمّا الأخرى فتُستمدُّ من العلوم الإنسانية، والتي لا يسعنا القول بأنّ مياهها قد طفحت بشكل تامّ بالعقبات المختلفة التي تمنعها من الامتزاج بشكل كامل في التيار العظيم للتاريخ الديني. وبالتّالي، فإن تحقيق الوحدة التجريبية، ينبغي أن يتجاوز القسمة التقليدية بين الأديان الكتابية والأديان المدنّسة، كما أنّ تحقيق وحدة النّسق تفرض تجاوز كل نزعة نحو الثنائية أو التعدّدية. هذان هما الشرطان اللّذان يُتوقّع منهما القيام بدور ريادي في مستقبل علم الدين.